الأضرحة النوميدية والموريطانية

تقاسمت خريطة المغرب القديم العديد من الكيانات السياسية التي كشفت عنها المصادر الأدبية، وكرستها العديد من المعالم الأثرية وأهمها ما يصطلح بتسميته بالأضرحة الملكية. وبالرغم مما تطرحه هذه القرائن من صعوبات مطابقة تاريخها وانتمائها مع المعطيات الأدبية و التاريخية المعروفة، فقد شكلت امتدادا حقيقيا للعمارة الجنائزية المعروفة في مرحلة فجر التاريخ (البازيناس- التومولوس)

ومثلت الأضرحة الملكية رمز قوة الملك أو العائلة الحاكمة، فهي تمثل إشارات لحالة استقرار تبنى بجوار العواصم أو المدن المهمة، لتمثل صورة دولة منظمة تستمد قوتها من المراكز الحضرية أكثر من الحياة القبلية، وتشهد على تطور النظام الملكي المحلي بتقاربه من الزخارف الإغريقو-شرقية، فهي تمثل دخول الممالك المحلية ضمن الحضارة المهيمنة في ذلك العصر،

1- الأضرحة الدائرية بقاعدة أسطوانية وقمة مدرجة :

المدغاسن :

يقع بالشمال الغربي من الأوراس وقربه بركة مائية عرفها القدماء باسم البركة الملكية، وتحيط به مقبرة، ويشبه هذا الضريح الآلاف من التملوس (التلال الجنائزية) المنتشرة بالشمال الافريقي القديم ، فيوصف كشكل معماري متطور عن البازينا ، فيظهر على شكل أسطوانة يعلوها مخروط ذو درج يزينه زخرف من الهندسة الإغريقية – المشرقية، لذا يصفه غزال بمبنى أهلي يغطيه رداء من أصل أجنبي .

ويعود أصل التسمية إلى مدغيس جد أسطوري لأهل البربر بالأوراس ، قطره 59 متر وارتفاع قدره 18,5 متر، الأسطوانة ارتفاعها 4,5 متر يزينها 60 عمود مندمج من الطراز الدوري وجذوعها غير مخددة، تحمل عارضة ملساء وإفريز بشكل عنق مصرية، وفوق هذه الأسطوانة يرتفع المخروط بـ 24 درجة من الحجارة المنحوتة ومتموضعة بإتقان بالغ، يدل على وجود مهندسين متمكنين لإدارة العمل، ونجد بالأعلى سطح عريض قطره 11,4 متر احتوى على الأغلب عمل هندسي أو تمثال، أو كان مجالا للقيام ببعض الشعائر، مدخل الضريح بالجهة الشرقية، وهو فتحة صغيرة تخفيها أحجار الدرجتين الثالثة والرابعة مكونة من بلاطة منزلقة، يؤدي إلى ممر طويل وضيق إلى قاعة بوسط المبنى، وهي ضيقة طولها 3,30 متر وعرضها 1,50 متر، تمتد على جانبيها مصطبة عرضها 20 سم، وعلى أرضية الممر والقاعة أثر الطلاء الأحمر لون جنائزي .

تأريخ هذا المبنى يمثل جدلا أيضا، فيرى غزال أنها كانت مقبرة ملك عظيم مؤرخة بالقرن الثالث ق.م ، ويساير راكوب هذا الطرح بافتراضه أنه ضريح لسلالة المازيل بناه على الأغلب

ماسينيسا بعد انتصاره على صفاقس ، أما كامبس واعتمادا على تحليل بقايا الكربون 14 لعوارض خشبية مكتشفة بداخل الضريح ، فيرجع تاريخه لفترة أقدم لما بين القرنين الرابع والثالث ق.م .

الضريح الموريطاني :

أو مثلما يسميه البعض ضريح النصرانية، وهو أكثر تشوها من المدغاسن بفعل السكان المجاورين، أو أعمال التنقيب، يرتفع على سطح مربع قطره 63,9 متر، وقطر أسطوانته 60,9متر، ويرتفع بعلو 32,4 متر ، ليكون أعلى من المدغاسن، ويرجح أن يكون علو الضريح الأصلي يصل إلى 40متر ، بالأسطوانة نجد أيضا 60 عمود مندمج غير مخدد يزين الأسطوانة لها قواعد من الأسفل وتيجان من الطراز الإيوني يحيط بقسمها الأدنى طوق من الزخارف بشكل ورود وتحمل برزة entablement كعصابة من فوقها إفريز، وفي كل واحدة من الجهات الأربع يقوم باب وهمي بشكل مربع منحرف، بروزاته الناتئة وضعت وكأنها صليب كبير (ومنه أخذت تسمية قبر الرومية) وعلى هذا المربع المنحرف إفريز به وسمات إغريقية من صفوف زخارف بيضاوية الشكل. يقع مدخله فوق الباب الوهمي الشرقي كالمدغاسن لا يرى، يؤدي المدخل إلى ممر صغير الذي يؤدي إلى قاعة واسعة يحمل نقش خشن يصور أسد ولبؤة وتؤدي القاعة إلى ممر ثان ضيق جدا يفضي إلى رواق عريض يصعد به على درجات عرضه مترين وعلوه مترين ونصف، ويصل طوله إلى 150متر ويحيط بكل البناية لينعطف في آخره بقوة نحو الوسط حيث نجد ممر ثالث منخفض يدخل إلى كهف غير كبير وينبعث منه ممر آخر منخفض لينتهي إلى قاعة بوسط الضريح بدقة، مقياسها أربع أمتار على ثلاث أمتار.

لا شك أن ضريح الرومية هو تقليد للمدغاسن من خلال عدد الأعمدة الستين، والغطاء بالحجر المصقوب، لكنه أعلى بعشرين مترا، ونلاحظ فيه تعويض التيجان الدورية بالإيونية، وكذا اختفاء المؤثرات المصرية.

أما عن تأريخه فكونه نسخة منه فهو متأخر زمنيا عن المدغاسن، وطبعا قبل تاريخ الاحتلال الروماني للمنطقة (40م)، وحسب غزال تحمل حجارته علامات تشير إلى مختلف محاجر اقتلاعها وهي تشبه الأبجدية اللاتينية، مما يجعله يذهب بإمكانية بنائه أثناء فترة احتكاك وانفتاح موريطانيا على الحضارة الرومانية، ويرفض غزال كونه معلما ليوبا الثاني فقط لأنه موجود قرب عاصمته قيصرية، فبالنظر إلى ذوق يوبا الهليني، فمن المستبعد أن يبني قبرا يقلد فيه ملك نوميدي قبله ويتمثل في حجارة ثخينة مكدسة على طريقة التملوس الليبية ويستخدم لتزيينه تيجان إيونية مهجورة منذ قرون في العالم الإغريقي. لذا من المقبول أن من أقام هذا القبر حكم موريطانيا قبل يوبا الثاني أراد إظهار جاهه وسلطانه واستقدم مهندس قرطاجي أو هليني، وعلى هذا يؤرخه غزال بالقرنين الثاني أو الأول ق.م، ومع اعتبار أن إيول قبل أن تكون قيصرية يوبا كانت عاصمة بوخوس

الذي كان ملك موريطاني الشرقية فترة الحرب الأهلية الرومانية ثم ضم له موريطانيا الغربية عام 38ق.م وتوفي 33ق.م، لذا يرشحه غزال لأن يكون صاحب الضريح الموريطاني ، كما عاد الباحثين لاعتماد خاصية مطابقة النط بالعمران الإيطالي ليؤرخوا المعلم بنهاية القرن الثاني والعقد الأول من القرن الأول ق.م أي فترة مملكة موريطانيا عهد بوخوس الأول أو الثاني كأقصى تقدير.

بالعودة إلى الضريحين السابقين، يبدو أن هناك تطور في طريقة البناء من خلال أحجام الحجارة ودقة القطع، ثم ترصيصها بواسطة ثقالة على الأغلب، مما يشير إلى ورشة بناء كبيرة وعمال مؤهلين، وإشراف هندسي من مختصين لإدخال العناصر الزخرفية المختلفة، وعلى هذا من المرجح مشاركة يد عاملة أجنبية في العمل، بونيقيين على الأقل، لكن يمكن أن نجد من ضمنهم إغريقا.

كذلك ضريحي المدغاسن والموريطاني يدخلان حسب البعض ضمن ما يعرف بالهندسة المتوسطية التي ازدهرت وتعدد أشكالها خلال الفترة الهلينية، ، فقد أرجعه البعض لكونه تحويرا أو تقليدا لضريح الاسكندر الذي بناه بطليموس الرابع ، لذا حسب هذا الافتراض نجد من الخاطئ اعتبار المدغاسن مجرد بازينا ضخمة بل أهميته هو مظهره الخارجي وأعمدته الدورية وكورنيشه المصري وليس له علاقة مع التيميلوس .